الحلقة (١٨)

في هذه الحلقة حديثنا موصول على ما تكلمنا عنه في الحلقتين الماضيتين، عن صفة كلام رب العالمين أن القرآن من كلام الله وليس بمخلوق، وفي هذه الحلقة سوف نتحدث عن أدلة أهل السنة والجماعة على قولهم، ورد الاستدلال على مخالفيهم، المسألة فيها أشياء: أن القرآن كلام الله، وأدلة ذلك كثيرة ومعلومة ومنها قول الله عز وجل {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ} وقول المؤلف "**ومنه بدأ بلا كيفية قولا**" هذا دليله قوله سبحانه وتعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} وقول الله عز وجل{ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وقال: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} ثم وصفه قال {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ولهذا حرف (من) من الأحرف المهمة في تقرير العقائد السلفية، فينبغي لطالب العلم أن يهتم به في كتب النحو وكتب المعاني، لأنه يفيد في مواضع كثيرة يفيد في هذا الموضع وغيره من المواضع.

قول المؤلف "**بلا كيفية**" يعني إن الكيف غير معقول وهذا يدل عليه قوله تعالى **{**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، قول الطحاوي "**وأنزله على رسوله وحيا**" يعني أن القرآن وحياً، وهذا أمر ظاهر متواترٌ معروف للجميع، قال "**وأيقنوا أنه كلام الله في الحقيقة**" هذه الكلمة دليلها قول الله عز وجل **{**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**}**، فتكليم موسى أُكِّد بالمصدر، قال علماء العربية أن تأكيد الفعل بالمصدر يدل على إرادة حقيقته، وألا يراد به غير الظاهر والحقيقة، وهذا القول من باب التنزل معهم بحسب لغتهم، وإلا فإن استعمال الحقيقة والمجاز في هذا الموضع لا يصلح من الأساس، وإنما إذا كان في الرد على المخالفين فلا بأس من باب حدثوا الناس بما يعرفون، أيضاً قارن بين قوله تعالى { فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ} فإذن كلام الله عز وجل الذي تكلم به حقيقة، جمعا بين الآيتين آية براءة وآية سورة النساء، إذن هذه هي الأدلة من الكتاب على معتقد أهل السنة والجماعة.

أقوال أهل البدع أخص منها قول المعتزلة والأشاعرة، أما أقوال الجهمية والفلاسفة فهذه سوف يأتي الكلام عنها وسوف نقرأها إن شاء الله.

قول المعتزلة مشهور وأن القرآن مخلوق استدلوا بدليل عقلي، والآن نظهر عقيدة أهل السنة بالرد على المبتدعة، استدل المعتزلة بدليل عقلي كما مر بالحلقة الماضية "**أنه لو أثبت أن الكلام يسمع فمعنى ذلك أن الرب عز وجل جسم، لأن الكلام لا يصدر إلا بتغير، وهذا التغير إذا حل في شيء يدل على أنه جسم**".

وهذا القول يدلهم على أن الرب يجب أن ينزه عن جميع المظاهر الجسمانية بأنواعها، لأن وصفه عز وجل بأنه جسم كفر على حد قولهم.

وهذا القول يرد عليه من وجهين:

- الرد الأول أن ذكر صفة الكلام لله عز وجل وارتباط الجسمية بها هذا أصلا غير صحيح، وذلك أن

المقدمة بُني عليها هذا القول هي البرهان بما سموه **حلول الأعراض في الأجسام**.

وهذا البرهان الجهمي لم يدل عليه القرآن ولا السنة، بل دل القرآن ودلت السنة على بطلانه، وذلك من جهة أن الجسم موجود بأعراضه، وأنه إذا كان العرض يحل بالجسم فدل على أن الجسم غير مختار لحلوله، إذا كان الجسم يحل فيه العرض، والجسم لم يختر حلول العرض فيه، فدل على أنه محتاج، لا ينطبق على الصورة التي فيها الكلام، لأن من قال إن القرآن كلام الله تكلم به. فلو قيل إنه عرض، فيقال اتصافه به كان بمشيئته وقدرته واختياره، فخالف من هذه الجهة والبرهان، بمعنى الكلام ليس بعرض تنزلا مع المعتزلة والجهمية ومن وافقهم بأن الكلام ليس بعرض، ولا ينطبق البرهان على هذه الصفة صفة الكلام لرب العالمين.

فدل أولاً : على أن البرهان في نفسه غير صحيح في هذه المسألة، تطبيق البرهان غير صحيح في مسألة كلام الرحمن.

ثانياً: تدل على أنه حينما أصلوا البرهان لم يطبقوه على وجه الصواب في الصفات، فجعلوا الجسمية والعرضية متلازمة دائماً مع الحاجة وهذا فيه نظر.

- **أما الرد الثاني** فإن النصوص دلت على أن القرآن كلام الله عز وجل وعلى أن الله يتكلم وعلى أن هذا أُكد بمؤكدات ومجموع هذه النصوص إذا أُريد تأويل هذه النصوص أنه لا يستقيم بكل هذه المواضع تأويل هذه النصوص.

الثاني أنه يلزم منه نفي الصفات التي وصف بها المعتزلة رب العالمين.

أما الأول فلا يستقيم في كل موضع، فمثل ما قالوا في قوله تعالى {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، قالوا معناه كلم الله موسى أنه سمع كلامه المخلوق في الشجرة، وهذا السماع أوكد في حق موسى لأنه سمع كلاماً تُكلم به، يعني أن التكليم ليس تأكيدا للفعل الذي بدأ من الله، لكنه لإحساس موسى بما سمع.

وقال بعض الناس في قول الله {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، يعني جرحه بأظافير الحكمة تجريحا أخذوه من كلم يعني جرح.

ولقد جاء بعض المعتزلة إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء الذين جعلوا قراءتهم معتمدة على النحو، قال لأبي عمرو بن العلاء اقرأ {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، قال هبني -يقول أبي عمرو بن العلاء- هبني قرأت ذلك فما تصنع -المعتزلي طلب من أبي عمر أن يقرأ اللهَ بالفتح- يعني الكلام من موسى لله عز وجل فقال له أبا عمرو هبني قرأت ذلك فما تصنع بقول الله تعالى {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} هذه ما تقبل، فإذا حرفوا شكل الكلمات فهنا لا يستطيعون تحريفها، وما تصنع بقوله تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ}، وهذا يدل كما ذكرت لك على أنه لا يستقيم مع الآيات الأخرى.

المذهب الثاني: وهو مذهب الأشاعرة في صفه الكلام، وهو أخطر الأقوال، لأن قول المعتزلة جمهور الأمة يقول بخلافه، يعني جمهور المنتسبين للقبلة يقولون بخلافه في هذا الزمان خصوصاً، لا يوجد من يقول بقول المعتزلة إلا ثلاث طوائف، وهم الرافضة والإباضية أو الخوارج والزيدية، أما ماعداهم فلا يقول بقول المعتزلة في الوقت الحاضر.

قول الأشاعرة **"يقولون إن كلام الله معنى وأن القرآن ألقي في نفس جبريل فعبر عنه"**، وهذا القول منهم لا شك أنه أخص من قول المعتزلة، لذلك تجد أن الأشاعرة هم الذين أخذوا زمام الرد على المعتزلة في مسألة خلق القرآن في القرون المتوالية بعد زمن السلف الصالح، كالإمام أحمد والبخاري والأئمة هؤلاء تولوا الرد وعثمان بن سعيد وغيره ممن صنفوا في ذلك، لكن من رد على المعتزلة بردود عقلية وتوسع في ذلك هم الأشاعرة، وبينهم وبين المعتزلة مناظرات، ولأجل خلاف المعتزلة والأشاعرة في هذه المسألة. كان أهل الحديث والأشاعرة في أول الأمر متفقين. متفقين غير مختلفين حتى حدثت فتنة ابن القشيري في أواخر القرن الخامس فصارت المنابذة العظيمة بين الأشاعرة وأهل السنة. فكان الأشاعرة لا يعلنون مذهبهم في كل المسائل على التفصيل، حتى حدثت الفتنة، المقصود من هذا أن الأشاعرة ردوا على المعتزلة في مسألة خلق القرآن وصفة كلام رب العالمين.

وأصل مذهب ابن كلاب أنه توسط ما بين قول أهل الحديث، لأنه خالطهم وما بين قول المعتزلة فأتى بهذا الشيء الذي **أن القرآن معنى واحداً لأن الذي من أجله قيل إن القرآن مخلوق وأن كلام الله عز وجل أصوات وحروف وأنه يسمع، فقال ننفي هذه ونبقي كلام الله غير مخلوق.**

فإذا تبين ذلك فنأخذ من هذا تفصيل، وهو أن دلالة الكلام في اللغة على اللفظ والمعنى فيها مذاهب.

المذهب الأول مذهب أهل السنة والجماعة وأهل الحديث والأثر أن كلام الله والقول إذا أطلق يعني إذا قيل الكلام كلام فلان أو كلام الله فإن المراد به شيئان. **بمعنى دون تفريق الواحد عن الآخر، يراد به اللفظ والمعنى جميعاً**، هذا مذهب أهل السنة والجماعة يراد بها اللفظ والمعنى جميعاً.

المذهب الثاني مذهب المعتزلة قالوا: **أن الكلام هو في المعنى وفي اللفظ مجاز.**

المذهب الثالث مذهب الكلابية قالوا : **أن الكلام للمعاني ولكن الحديث إخراجه هذا دليل عنه.**

واستدلوا بقول الأخطل في الشعر المشهور المعروف عنده بالاستدلال:

إن الكلام لفي الفؤادِ وإنما ***جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

◈ أصل المسألة : أن الكلابية والأشاعرة قالوا إن الكلام معنى، كلام الله تعالى معناه ألقاه في روع جبريل، وهذا لأجل أنهم أصّلوا تأصيلات ومنها أن الكلام لايدل على الإخراج وإنما يدل على ما قام في النفس.

عندما ذكرنا في أول المقال تعريف كلّم وكُلِم وهذه المادة و اشتقاقاتها قبل حلقتين، يُبطِل معنى قول من قال أن الكلام معنى، فإن اللغة دلت على أن يكون الكلام لفظا ومعنىً، حتى كلمة لفظ تدل على

شيء ملفوظ مفرد، ما أحسن قول المعري وإن كان ليس مجال احتجاج حيث قال:

من الناس من لفظه لؤلؤ**يبادره اللقط إذ يلفظ

وبعضهم قوله كالحصا** يقال فيلغى ولا يحفظ

يعني من الناس من لفظه لؤلؤ اللفظ لابد أن يلفظ يخرج فكيف يكون الكلام والقول في الداخل دون الخارج، وكيف يكون المعنى يدل عليه في الإنسان بلا لفظ، وإذا كان ثم لفظ فإذن ثم معنى، واللفظ لابد أن يلفظ ويخرج، فدل ذلك على أن قولهم بأن الكلام معنى وأن هذا هو الأصل فيه، هذا لاشك أنه مُعَارض باللغة في تأصيلاتها أو اشتقاقاتها وأيضا معارض بالنصوص التي ذكرنا بعضها في بداية الكلام في هذه الحلقة.

الكلابية ورثهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله والماتوريدي في الكلام في هذه المسألة، تارة يعبرون عنه بقولهم الكلام صفة نفسية، وتارة يعبرون عنه بأن كلام الله تعالى قديم، قبل أن يخلق الخلق وقبل أن يوجد شئ تكلم بكلام قديم وانتهى، وتارة يعبرون عنه بمعنى قائم بالنفس، وتارة يعبرون عنه بأنه عبارة، بمعنى أن القرآن عبارة عن كلام يعني عبر به عن كلام الله لا أنه هو كلام الله.

إذا تبين ذلك فحاصل معتقد هذه الطوائف الكلابية الأشاعرة الماتريدية أن كلام الله قديم، يعني تكلم الله عز وجل به في الأزل ثم لما أراد إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم قالوا ولما تكلم به في الأزل، به معنى فألقاه في روع جبريل فنزل به جبريل فعبر عنه، وإلا فكلام الله عندهم ليس بالعربية ولا بالسيريانية وليس بالعبرية لتنزهه عندهم عن اللغات سبحانه وتعالى.

إذا تبين ذلك فمن أحسن الردود عليهم ما استشكله الآمدي، والآمدي من الحذاق الأشاعرة المعروفين ومن الأذكياء، قال إني نظرت في هذا القول وهو أن كلام الله قديم، وأن القرآن قديم، وأنه حين أوحي إلى محمد صلي الله عليه وسلم إنما أوحي بالعبارة، وبما ألقي في نفس جبريل، فأشكل علي أن القرآن فيه آيات كثيرة فيها التعبير عنه بلفظ الماضي: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)، وهل كان ثم مجادلة وهل كان ثم زوج؟ وهل كان ثم صوت حتى يسمع الله؟ قال وقد قال الله تعالى" قد سمع الله" فإذا كان الله عز وجل قال هذا القول في الأزل ولا زوجة ولا مجادلة ولا قول فما الذي سمع؟ فيلزمه منه أن قوله "**قد سمع**" وكل أفعال الماضي في القرآن أنها غير مطابقة للواقع، وهذا هو الكذب ولاشك أنه رد منطقي جميل، لأنه يلزمهم على أصولهم ولافرار منه، وهو رد حاذق من حذاق هذه الطائفة.

فإذا تبين ذلك فنقول خلاصة الردود على هذه الطوائف:

- **الرد الأول**: الاستدلال باللغة في معنى كلّم بمعنى الوحي.
- **الرد الثاني**: الاستدلال بالنصوص من القرآن والسنة التي فيها الإضافة، والقاعدة فرق مابين إضافة المخلوقات وإضافه المعاني.

■ **الرد الثالث**: أن يرد ما استدلوا به من أنواع الأدلة مثل ما أصلوه في أن الكلام يدل على المعنى فقط في اللغة. وأن الوحي يكون بالمعنى والإلقاء في الروع وغير ذلك من استدلالاتهم مثل قولهم يلزم التشبيه ويلزم التجسيم إلى آخره.

■ **الرد الرابع**: أيضاً نرد بقول الآمدي في التفريق بين الماضي والحاضر.

إذن تكلمنا في هذه الحلقة عن أدلة أهل السنة والجماعة على معتقدهم في صفة كلام الرحمن وأن القرآن منزل غير مخلوق ومنه بدأ بلا كيفية قولا، وأنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأنه كلام الله بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وذمه الله وعابه و أوعده بسقر، حيث قال تعالى {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} فلما أوعد الله بسقر لمن قال {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر.